

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، وانجهدت به خطاه نحو داره في جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسناً وضاء ، يكشف عما تكدّس في حرمة من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل ستر كثيف يجدد البصر والبصيرة . ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه في قومه الأميين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التي لم تفسدها أمراض المدنية وآفات الترف . ودعا إلى التوحيد ، جُفأة الوثنيين الذين بعدُ عهدُهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يخلقونها ويعبدون خالقهم فيها ، تجسداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسمى والمثل الأعلى .

* * *

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء . .

ومن هدى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فأمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفئون نار الجوسية ، ويبطلون سحر الكفرة الفجرة ، ويدكون صروح الطاغوت ، وينطلقون في الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتتريه المطلق ، وينشرون في العالم الكتاب والحكمة . . ويبلغون البشرية رسالتهم التي ناط بها القرآن أمته ، في آياته المحكمات :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

[الحج : ٤١]